رحلة علماء الأندلس لمكة المكرمة ونتائجها العلمية

خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين

إعداد

إبراهيم القادري بوتشيش

أستاذ بجامعة مولاي إسماعيل

كلية الآداب ، مكناس

المغرب

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

شكلت مكة المكرمة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين مركز استقطاب للعلماء الأندلسيين، وهي ظاهرة علمية متميزة حاول هذا البحث أن يلامس جوانبها من خلال ثلاثة أقسام :

عالج القسم الأول العوامل التي حدت بعلماء الأندلس إلى تفضيل مكة المكرمة عن سائر المراكز الثقافية الإسلامية الأخرى، فحصرها في تداخل القدسي والعلمي معا في مكة المكرمة، واقتران الحج عند الأندلسيين بطلب العلم، فضلا عن السمعة العلمية الطيبة التي اشتهر بها علماء مكة، مما جعلهم يسارعون للرحلة إليهم بقصد تلقي العلم عنهم .

أما القسم الثاني فقد اهتم بدراسة خصائص الرحلة الأندلسية لمكة المكرمة وتجلياتها العلمية . وفي هذا الصدد تمت معالجة أنواع الرحلات العلمية الأندلسية من رحلات فردية وجماعية نحو مكة المكرمة ؛ وتم رصد عدد الرحلات التي كان يقوم بها طلاب العلم الأندلسيين، و المدة التي كانت تستغرقها الرحلة الأندلسية إلى مكة . كما ركز البحث على دراسة أعمار المرتحلين الأندلسيين، فاستنتجنا أن الرحلة العلمية شملت كل الفئات العمرية .

وفيما يخص تجليات الاستفادة العلمية لهذه الرحلات، فقد تناولناها من خلال عدة مظاهر كملازمة الأندلسيين لشيوخهم المكيين، والتردد على مجالسهم دون انقطاع . وفي نفس السياق أجرينا

رصدا لأهم الكتب التي كانوا يدرسونها، وفي مقدمتها صحيحي البخاري ومسلم. كما جرى بحث العلوم التي كانوا يتلقونها عنهم وفي طليعتها العلوم الشرعية.

وفي القسم الأخير تصدى البحث لمعالجة النتائج العلمية للرحلات الأندلسية إلى مكة المكرمة، والتي تمثلت في حصول الأندلسيين على إجازات علمية من طرف علماء مكة، وتبحرهم في مختلف العلوم، مما أهلهم لكي يعودوا إلى الأندلس أطرا علمية ذات باع طويل. وأبانت النتائج الأخرى أيضا أن بعضهم آثروا الاستقرار نهائيا في مكة المكرمة، وأصبحوا بدورهم علماء أكفاء يساهمون في حلقات التدريس بها.

***

مقدمـــة :

تعـد الرحلـة في طلـب العلـم ولقـاء العلمـاء وسـيلة لتكـوين الشخـصية العلميـة، وصـقل المواهـب واكتـساب المهـارات، وهـو مـا عبّـر عنـه ابـن خلـدون بقولـه : ((فالرحلـة لا بـد منهـا في طلـب العلـم لاكتـساب الفوائـد والكمـال، بلقـاء المـشايخ ومباشـرة الرجـال)) [١] . ولا مـراء في أن طـلاب العلـم الأندلـسيين كـان يحـدوهم الطمـوح للارتـشاف مـن قـبس المعرفـة، ويتحرقـون شـوقا للقـاء العلمـاء الـذين كانـت تحتـضنهم مختلـف الحواضـر الإسـلامية . ومممـا زاد في رغبـتهم العلميـة الجامحـة، إحـساسهم بقلـة عـدد مـن دخـل بلادهـم مـن الـصحابة والتـابعين وكبـار الفقهـاء، ممـا يـستلزم تعـويض ذلـك الـنقص بالرحلـة والأخـذ عـن علمـاء المـشرق، بغيـة إرواء ظمأهم العلمي [٢].

وبإلقـاء نظـرة علـى خريطـة المراكـز الثقافيـة الإسـلامية خـلال القـرنين الرابـع والخـامس الهجـريين، وهـي الحقبـة الـتي تهـتم بهـا هـذه الدراسـة، نجـد هـذه المراكـز تتـوزع مـا بـين القـاهرة والإسـكندرية ودمـشق وبغـداد والقـيروان وقرطبـة . غـير أن مكـة المكرمـة ظلـت تـشكل طيلـة الحقبـة المـشار إليهـا مركـز جـذب للعلمـاء، إذ لم تكـن قبلـة روحيـة فحـسب، بـل كانـت أيـضا قبلـة علميـة للنخبـة العالمـة الإسـلامية، لـذلك لا غرابـة أن يتطلـع العلمـاء وطـلاب المعرفـة مـن أهـل

١ ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (ط٣) – دون تاريخ، ص ٥٤١ .

٢ محمود علي مكي ((رواد الثقافة الأولى بالأندلس))، مجلة البينة، الرباط، العدد ٧، سنة ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢، ص ٦٧ .

الأندلس للرحلة إليها، فكانوا يمكثون بها ردحا من الزمن قبل أوبتهم إلى بلدانهم، بينما كان آخرون يفضلون البقاء فيها نهائيا، فتمخض عن ذلك نتائج في غاية الأهمية تجلت في حصول هؤلاء المرتحلين على إجازات علمية من قبل شيوخ مكة، وتكوينهم تكوينا علميا عاليا، وتخريج أطر من الطراز الرفيع، تولت مناصب القضاء والإفتاء، وساهمت في تأليف المصنفات، وضربت بسهم وافر في حقل العلوم الدينية، وهو ما تسعى هذه الورقة إلى رصده والوقوف على تفاصيله.

وقد آثرنا اختيار حقبة القرنين الرابع والخامس الهجريين كمجال زمني للدراسة، نظرا لما بلغته الحركة الثقافية في العالم الإسلامي آنذاك من نضج، وما حققته من نقلة نوعية، وتحول كمّي على مستوى التبادل الثقافي، بل نميل إلى ترجيح أن تكون هذه الفترة تجسد الحقبة الذهبية لإشعاع الحضارة الإسلامية وتعدد مراكزها الثقافية. كما أن الشخصية العلمية الأندلسية اكتمل نموها في هذه الحقبة، وشاع حب الرحلات العلمية والضرب في الأرض بشكل ملفت للانتباه. فرغم ما حدث من اضطرابات سياسية في عصر ملوك الطوائف، لم يخب نجم العلم من سماء الأندلس، إذ استمر العطاء العلمي متدفقا، وكانت الرحلات العلمية للأندلس إحدى تجلياته. وسنركز على انتقاء مادتنا في رصد هذه الرحلات العلمية على ما يعرف بالأدب البيوغرافي، ونقصد به كتب السيرة والطبقات والتراجم وفهارس الشيوخ، لأنها تفردت عن غيرها من المصادر في ذكر رحلات

علماء الأندلس وتتبع محطات توقفهم واستقرارهم، مع ذكر العلوم التي درسوها، والمؤلفات التي صنفوها أو حملوها معهم، إلى غير ذلك من المعلومات القيمة التي تعزّ في كتب التاريخ المتداولة . أما الأسئلة المركزية التي سيتم طرحها في هذا البحث فتتلخص في : ما الذي حدا بالمغاربة والأندلسيين إلى توجيه أنظارهم نحو مكة المكرمة ؟ وما هي مظاهر الحضور الأندلسي العلمي في تلك البقعة الروحية –الثقافية ؟ وما هي النتائج التي تمخضت عن هذا التحرك البشري الذي مثله صفوة علماء الأندلس نحو مكة المكرمة ؟

أولا : لماذا فضل الأندلسيون الرحلة العلمية نحو مكة المكرمة ؟

بتتبع كتب السير والتراجم التي تعكس رحلات العلماء الأندلسيين نحو المشرق، يتضح أن مكة المكرمة شكلت أهم مركز جذب لهؤلاء العلماء من بين جميع المراكز الثقافية الإسلامية المشرقية المنتشرة، وهذه ظاهرة تفسر بالعوامل الآتية :

١- تداخل الرمز الديني والعلمي لمكة المكرمة :

إذا قمنا بدراسة في العقلية الإسلامية عموما، والعقلية الأندلسية خصوصا من أجل الوقوف على نظرتها لمكة المكرمة، نجد تداخلا واضحا يصل إلى حد الاندماج الكلي بين ثنائية القدسي والعلمي لمكة المكرمة، فهي من جهة المكان الذي يحتضن الكعبة المشرفة، بما يحمله هذا الاحتضان من رمزية قدسية، ومن جهة أخرى

هي الموضع الذي نزلت فيه أول سورة تحض على المعرفة والتعلم، مصداقا لقوله تعالى : ((إقرأ باسم ربك الذي خلق)) [١]، الأمر الذي هيأها لتكون البقعة التي صدر منها أول نداء إسلامي لتكوين مجتمع المعرفة . فالارتباط بين الرمز الديني والرمز العلمي، جعل نظرة الأندلسي لمكة الروحية هي نفس النظرة لمكة العالمة، وجعل وجدانه ينجذب إليها انجذابا سحريا، فأمنية طالب العلم الأندلسي كانت تتجسد في زيارة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة، ومقابلة علمائها في نفس الوقت ؛ بل إن بعض الأندلسيين عبّروا عن هذا الارتباط بين قدسية المكان وفضائه العلمي بشكل واضح وصريح : فهذا الفقيه الأندلسي أبو بكر بن العربي من علماء القرن الخامس الهجري، يذكر في ما نقله لنا المقري في كتابه " نفح الطيب " ما يؤكد هذا الترابط بين الجانب القدسي والعلمي لمكة المكرمة في قوله : ((كنت مقيما بمكة في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكنت أشرب من ماء زمزم كثيرا، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان، ففتح الله لي بركته في المقدار الذي يسّره لي من العلم)) [٢] . فتحقيق هدف الارتواء من العلم جاء نتيجة الارتواء من ماء زمزم، مما يؤكد التداخل بين الرمز الديني والعلمي في مخيال العقلية الأندلسية .

ومما يؤكد كذلك تداخل القدسي والعلمي في مكة المكرمة أن أحد علماء الغرب الإسلامي، وهو أبو عبد الله الصنهاجي

١ سورة العلق، آية ١

٢ نفح الطيب، تحقيق الشيخ البقاعي، دار الفكر، بيروت ١٩٨٦،ج٢، ص ٢٥٢ .

المعروف بابن آجروم، كتب مصنفه النحوي المسمى ب "الآجرومية " أمام الكعبة المشرفة تيمنا بها ؛ ونظرا لما عرفه هذا الكتاب من شهرة وانتشار واسع في المشرق والمغرب، فقد عزا بعض أهل العلم ذلك إلى بركة مكة التي كتب في أحضانها[١].

٢- الرغبة المزدوجة في الحج و طلب العلم :

من الملاحظات الأساسية التي يستشفها كل متفحص للأدب البيوغرافي، ونقصد به كتب السيرة والطبقات والتراجم أن رحلة الأندلسيين الحجية اقترنت دائما بالرغبة في طلب العلم ؛ فبقدر ما كان يحرص هؤلاء على أداء شعائر الحج باعتبارها فريضة من فرائض الإسلام، بقدر ما كانوا يعدون العدة للتزود بزاد العلم والالتقاء بعلماء مكة .

ورغم بعد الشقة، والأخطار التي كانت تحدق بالأندلسيين في طريق الحج[٢]، وإمكانية وقوعهم في قبضة القراصنة المسيحيين[٣]، فإنهم تجشموا عناء السفر، وغامروا بأرواحهم من أجل تحقيق هذه الرغبة المزدوجة : الحج وطلب العلم .

---

١ أحمد الريسوني، ((مكة المكرمة في الثقافة المغربية)) بحث نشر ضمن أعمال ندوة " مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية " منشورات وزارة الحج، الرياض ١٤٢٤ هـ \ ٢٠٠٣ م، ص ٣٧٨ .

٢ يذكر ابن الفرضي أن صالح بن محمد المرادي ذهب إلى الحج ولكنه لم يصل لأن بضاعته سرقت منه، انظر: تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ج١، ص ٢٠١ . ويذكر ابن الفرضي أيضا أن أحد المرتحلين لمكة لم يكمل رحلته بسبب وفاته في البحر وهو لا يزال شابا، انظر نفس المصدر، ج١، ص ١٤٧.

٣ نفس المصدر، ج١، ص ٢٠١ – ثم : ج٢، ص ٨٤، ١٣٠ .

وإذا تأملنا في التعبيرات التي استعملها مؤلفو كتب السير والتراجم الذين اعتنوا بتدوين رحلات العلماء الأندلسيين، نجد أن طلب العلم يأتي دائما مقرونا بالحج، وهو ما يوضحه الجدول رقم ١ الوارد في ملاحق البحث، ومنه يستشف أن الحج وطلب العلم شكلا وجهين لعملة واحدة، وهدفين غير منفصلين في سلوك علماء الأندلس، فالحج يعني في استراتيجيتهم فرصة ينبغي اهتبالها للارتشاف من حياض علماء مكة .

٣- السمعة الطيبة لعلماء مكة المكرمة :

إلى جانب العوامل الآنفة الذكر، فإن السمعة العلمية لشيوخ مكة، سواء تعلق الأمر بالعلماء المكيين، أو العلماء المسلمين النازلين بمكة المكرمة، كانت أيضا من العوامل الرئيسية التي استقطبت أهل الأندلس، وجعلتهم يحثون الخطى للالتقاء بهم والتتلمذ على أيديهم .

لقد كانت مكة المكرمة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين تعج بفطاحل العلماء الذين وصلت شهرتهم إلى عنان السماء، كالشيخ إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي [١] وابن

١ ترجم له صاحب كتاب المعين طبقات المحدثين، ج١، ص ٢٣٣، رقم ٢٣٩٠ فقال عنه : ((شيخ الحرم، إمام المقام رضي الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطبري المكي الشافعي))، سيديروم مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج.

الأعرابي وأبي ذر الهروي [١]، ومحمد بن الحسين الآجري [٢] وأبي حفص ابن عراك [٣]، وأبي بكر بن عمر المكي [٤]، وغيرهم من العلماء الذين تألقوا في علوم الحديث والقراءات والتفسير وغير ذلك من مناحي المعرفة .

ولم تقتصر السمعة العلمية لمكة المكرمة على شيوخها المكيين فحسب، بل كان يقصدها علماء مسلمون آخرون ممن يشار إليهم بالبنان، والذين كانوا يفدون إليها ليسدوا خدماتهم العلمية إبان مواسم الحج، وهم الذين عبّر عنهم ابن بشكوال أثناء ترجمته للعالم الأندلسي خلف بن قاسم بن سهل إذ أشار إلى أنه أخذ عن مجموعة من

١ من علماء القرن ٥ هـ النازلين بمكة (ت ٤٣٤ هـ)، ترجم له ابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب ج٢، ص ٢٥٤ بقوله : ((أبو ذر الهروي عبد بن أحمد بن محمد الحافظ الثقة، الفقيه المالكي نزيل مكة، روى عن أبي الفضل بن حميرويه وأبي عمرو بن حيوية وطبقتهما، وروى الصحيح ثلاثة من أصحاب الفريري، وجمع لنفسه معجما، وعاش ثمان وسبعين سنة، وكان ثقة متقنا دينا عابدا ورعا بصيرا بالفقه والأصول، أخذ الكلام عن ابن البقلاني وصنف مستخرجا على الصحيحين، وكان شيخ الحرم في عصره)). انظر السيديروم سالف الذكر.

٢ من الشيوخ البغداديين المجاورين بمكة، ترجم له صاحب كتاب المعين طبقات المحدثين في ج ١، ص ١١٤، رقم ١٢٧٥ بقوله : ((شيخ الحرم أبو بكر محمد بن الحسين الآجري البغدادي صاحب التواليف، ثقة)) . كما أورد ترجمته ياقوت الحموي أثناء حديثه عن درب الآجر، فذكر أنه حدث ببغداد ثم انتقل إلى مكة فسكنها إلى أن مات فيها في محرم سنة ٣٦٠ هـ. انظر : معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت (دون تاريخ)، ج١، ص ٥١.

٣ من العلماء المصريين النازلين بمكة خلال القرن ٤ هـ، ترجم له إبراهيم بن سعيد بن عبد الله الحبال في كتاب وفيات المصريين، ج ٢، ص ١٢٩، رقم ٩٢، فذكر أنه توفي بمكة يوم عاشوراء من سنة ٣٨٨ هـ .

٤ ابن الفرضي، م.س، ج١، صفحات ٢٩١، ٢٨، ٣١، ٨٢، ١٣، ٢٠ .

العلماء المكيين ((وغيرهم من الغرباء القادمين عليهم في الموسم)) ويقصد موسم الحج[١] .

وإلى جانب هذه الصفوة من المشايخ المكيين، برزت ثلة من العالمات المكيات اللواتي كن يضربن بسهم وافر في مجال العلوم الدينية، ويهرع نحوهن الأندلسيون للسماع عنهن، نذكر من بينهن العالمة المكية أم القاسم بنت محمد بن إسحاق التي عرفت بعلو كعبها في علوم الحديث[٢]، والعالمة المكية صباح التي كانت متمرسة في علوم التفسير، وكان يقصدها طلاب العلم في الحرم المكي[٣]، فضلا عن العالمة كريمة المروزية التي كان لا يشق لها غبار في مجال العلم [٤] . ولعلّ هذا الحضور العلمي النسوي يعكس الوضعية الثقافية المتميزة التي بلغتها مكة المكرمة، مما جعلها مركز استقطاب للعلماء المسلمين، وضمنهم الأندلسيون .

١ كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦،ج١، ص ١٦٧ .

٢ القاضي عياض، الغنية، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢، ص ١٦٠ .

٣ المقري، م.س، ج٣، ص ٣٩٨ .

٤ابن عطية، فهرست ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٠،ص ٤٦ . وقد ترجم لهذه العالمة الشهيرة الذهبي في سير أعلام النبلاء في ج ١٨، ص ٢٣٣، رقم ١١٠ بقوله : ((المجاورة بمكة، روت الصحيح عن الكشميهني وروت عن زاهر السرخسي، وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها، لها فهم ونباهة، وما تزوجت قط)) . وبذكر فضلها وأنها توفيت سنة ٤٦٣ هـ ثم يضيف عنها : ((وقال أبو بكر بن منصور السمعاني : سمعت الوالد يذكر كريمة ويقول : وهل رأي إنسان مثل كريمة)). انظر: السيديروم سالف الذكر.

ثانيا : خصائص الرحلة الأندلسية لمكة المكرم و تجلياتها العلمية :

١-الرحلات العلمية الأندلسية الفردية والجماعية نحو مكة المكرمة:

تنوعت رحلات الأندلسيين نحو مكة ما بين رحلة فردية وثنائية وجماعية، فكتب الطبقات والتراجم تتحدث في معظمها عن الرحلات الفردية التي يقوم بها طالب علم أندلسي صحبة جموع المسافرين المتوجهين برّا أو بحرا، لكن دون إشارة إلى من رافقه من طلاب أو علماء . وغالبا ما تكتفي الترجمة بذكر اسم المرتحل ونسبه والمدينة التي كانت نقطة انطلاق رحلته، وخط سيره والبلدان التي مرّ بها قبل وصوله إلى مكة المكرمة، مع ذكر الشيوخ المكيين أو النازلين بمكة ممن تتلمذ عليهم، والكتب التي سمعها، والعلوم التي اكتسبها، ثم عودته للأندلس، وذكر فضائله وسنة وفاته أحيانا .

ونظرا لكثرة النصوص المتواترة حول الرحلة الفردية، فإننا سنقتصر على واحدة منها للاستشهاد فقط، وهي الترجمة التي خصصها ابن الفرضي لعريب بن مطرف أحد علماء قرطبة حيث ذكر أن ((له سماع بالمشرق على ابن جهضم بمكة، وكان من أهل الأدب والمعرفة توفي سنة ٤٠٩هـ)) [١].

أما الرحلة الثنائية، فغالبا ما كانت تجمع بين طالب العلم الأندلسي وأبيه في سفرة واحدة، وهو ما يتجلى في رحلة عبد الله بن عبد الرحمن الصدفي الذي رحل مع أبيه سنة ٣٨١هـ فحج ولقيا بمكة

١ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٣١٣ .

أبا القاسم السقطي [١] . كما كانت تجمع أيضا بين المرتحل لطلب العلم وابنه، وهو ما تجسده ترجمة ثابت بن حزم الذي رحل مع ابنه إلى مكة، وسمعا معا من أحد شيوخها وهو عبد الله بن علي بن الجارود [٢] . كما كانت الرحلة العلمية الثنائية تجمع أحيانا بين الأخوين، وهو ما تعكسه ترجمة عبد الرحمن بن هشام بن جهور (ت٣٨٤هـ) الذي ((سمع بمكة مع أخيه أبي الوكيل)) [٣] .

وفيما يتعلق بالرحلة العلمية الجماعية، فأقصى ما عثرنا عليه في النصوص لا يتجاوز ذكر الرحلة التي جمعت بين ثلاثة علماء مرتحلين، وفي هذا السياق ورد في ترجمة محمد بن سعيد ابن عبد الله بن قرط أنه ((كان رفيقا في رحلته لمحمد بن إسحاق بن السليم وأبي المغيرة بن برّي)) [٤] . كما شملت الرحلة العلمية الجماعية أحيانا أشخاصا من عائلة واحدة إذ أورد كل من الحميدي [٥] وابن بشكوال [٦]

١ نفس المصدر، ،ج١، ص ٢٢٠ . وأبو القاسم السقطي من علماء القرن ٥ هـ، ترجم له صاحب سير أعلام النبلاء في ج ١٩، ص ٩٣ بقوله : ((السقطي أبو القاسم هو إمام الشافعية، قرأ القرآن والفقه والحديث والأصول واللغة العربية، وكان فطنا في الاجتهاد، وله توسع في الكلام والفصاحة في الجدال والخصام... وإليه انتهت رئاسة الشافعية، توفي في العشرين من جمادي الآخرة سنة اثنين وثمانين وأربعمائة))، انظر: السيديروم سالف الذكر.

٢ ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ١٣٢ . وعبد الله بن علي بن الجارود هو صاحب كتاب المنتقى، وقد ترجم الذهبي في كتاب سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ٢٣٩ .

٣ ابن الفرضي، م.س، ج١، ص ٢٦٦ . ولم يورد ابن الفرضي ترجمة أخيه أبي الوكيل في كتابه " تاريخ علماء الأندلس " .

٤ نفس المصدر، ج٢، ص ٤٤ .

٥ الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٣٦ .

٦ الصلة، ج١، ص ٦٦ .

في ترجمة العلامة الأندلسي اللامع أحمد بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي أنه ((رحل إلى المشرق مع أبويه سنة ٤٠٧ هـ ووصل إلى مكة سنة٤٠٨ هـ)) .

والواقع أن كل مرتحل أندلسي كان يتوق إلى الانخراط في رحلة جماعية سواء كان سفره عن طريق البر أو البحر، و ذلك لأسباب أمنية، أو التماسا للأنس وجميل العشرة أثناء الطريق، أو لاقتراض المال من المرافقين له كلما دعت الضرورة . لذلك كان الطلب لإيجاد رفاق السفر يشكل همّ كل مرتحل أندلسي [١] .

٢-الرحلة العلمية الأندلسية ما بين الرحلة الواحدة والرحلات المتعددة :

إذا كانت أغلب الرحلات العلمية الأندلسية لا تتجاوز الرحلة الواحدة كما تثبت ذلك معظم التراجم المنبثة في كتب الطبقات والسير، فلا نعدم من النصوص ما يشير إلى أن بعض طلاب العلم الأندلسيين تجشموا عناء السفر، ورحلوا إلى مكة مرتين أو ثلاثة أو أكثر . ففي رحلة خلف بن سعيد المعروف بابن المرابط، ورد أنه ((رحل إلى المشرق مرتين، ولقي ابن الأعرابي بمكة، الأولى سنة ٣٣٢هـ والثانية سنة ٣٣٩هـ)) [٢]، أي أنه رحل الى مكة مرتين .

ونفس الشيء ورد بخصوص عالم آخر من علماء إشبيلية حيث

١ عياض : ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت _ طرابلس ١٩٦٧، دار مكتبة الحياة ودار مكتبة الفكر،ج٢، ص ٣٣ .

٢ ابن الفرضي، م.س، ج١، ص ١٣٥ . وقد ترجم صاحب كتاب المعين في طبقات المحدثين لابن الأعرابي في ج ١، ص ١١١ بقوله أنه ((محدث الحرم، صاحب المعجم، ثقة)) .

حج إلى مكة سنة ٤٠٠ هـ فلقي جماعة من العلماء وروى عنهم، ثم رحل مرة أخرى إلى المشرق، ووصل إلى مكة، وجاور فيها إلى أن توفي في حدود سنة ٤٣٥هـ [١] .

ويبدو أن عدم تحقيق الرغبة العلمية في الرحلة الأولى كان أحيانا من أسباب تكرار بعض العلماء رحلتهم إلى مكة المكرمة، فالعالم الأندلسي ابن الدراج كان قد رحل مع أبيه وهو صغير السن، ((فلم يسمع في سفرته تلك من أحد، ثم رحل ثانية سنة ٣٢٤هـ، فلقي بمكة ابن المقرئ عبد الرحمن بن عبد الله)) [٢].

وهناك من الأندلسيين من رحل إلى مكة أكثر من مرتين، ومن هؤلاء أبو بكر بن العربي الذي رحل إليها ثلاث مرات [٣]، ومحمد بن إبراهيم بن وضاح من أهل غرناطة الذي ((أخذ القراءات بمكة عن أبي علي بن العرجاء في سنة ٥٤٦ هـ و ٥٤٧هـ، وحج ثلاث حجات))[٤]، فضلا عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٤ هـ) الذي ((حج أربع حجج)) [٥] ؛ بل هناك من حج مرات متعددة كما هو الحال بالنسبة لعبد الله بن سعيد الشنتجالي (ت ٤٣٦ هـ) الذي ((حج الفريضة عن نفسه، وأتبعها خمسا وثلاثين حجة، وزار

١ نفس المصدر، ج١، ص ١٧٤ .

٢ ابن بشكوال، م.س،ج٢، ص ٤٥٠ .

٣ المقري، م.س، ج٣، ص ١١ .

٤ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار الحسيني، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ١٩٥٦، ج٢، ص ٥٩٩ .

٥ المقري، م.س، ج ٢، ص ٢٧٩ .

مع كل حجة زورتين، فكملت له اثنتان وسبعون زورة))[١]، كانت فرصة للقيام بشعائر الحج وتلقي العلم .

٣- المدة التي تستغرقها الدراسة في مكة :

كم كان يمكث علماء الأندلس في مكة للدراسة والتحصيل العلمي ؟

لم تقدم المصادر التي بين أيدينا جوابا شافيا حول المدة الزمنية التي كان تستغرقها عملية تكوين الأندلسيين وتحصيلهم العلم بمكة قبل عودتهم إلى الأندلس، إذ تشير الترجمة الخاصة بهؤلاء العلماء إلى سنة وفودهم على مكة دون ذكر سنة مغادرتها[٢] أو العكس، وأحيانا تنعدم السنوات بالمرة [٣]، في حين تشير بعض التراجم إلى طول المدة التي بقوا فيها بمكة دون تحديد واضح، وهو ما تعكسه ترجمة ابراهيم بن محمد بن سليمان اليحصبي الذي ((أقام بمكة شرفها الله مدة مديدة قبل أن يرحل إلى الإسكندرية سنة ٥٤٨هـ)) [٤] .

ونادرة هي الحالات التي تحدد فيها المدة الزمنية التي بقي خلالها الأندلسيون بمكة مثل حالات خلف بن قاسم بن حمدون (ت

١ ابن بشكوال، م. س، ج٣، ص ١١ .

٢ ابن الفرضي، م.س، ج٢، ص ٤١٧ .

٣ ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ٩٨ .

٤ السلفي : أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٥، ص ١٥٢ .

٣٩٣ هـ)، إذ تذكر النصوص أنه تردد على المشرق ١٥ سنة سمع خلالها من عدة شيوخ بمكة [١]، ومحمد بن طاهر القيسي من علماء القرن ٤هـ الذي ((أقام بالحرمين ثمانية أعوام)) [٢] . أما محمد بن أحمد بن عيسى بن مفرج فقد رحل إلى مكة سنة ٣٣٧هـ ورجع إلى الأندلس سنة ٣٤٥ هـ، أي أنه بقي في مكة مدة ٨ سنوات [٣]، بينما رحل عبد الله بن وهب (ت ٣٨٢هـ) وسكن مكة أحد عشر عاما [٤] . وفي ترجمة منذر بن سعيد، ورد أنه رحل حاجا سنة ٣٠٨هـ وأنه أقام في رحلته ٤٠ شهرا [٥]، في حين طالت مدة استقرار بعض علماء الأندلس في مكة حتى تجاوزت العشرين سنة، كما هو الحال بالنسبة ليحي بن مالك بن عاقد من علماء القرن ٤هـ، إذ رحل سنة ٣٤٧هـ وعاد إلى الأندلس سنة ٣٦٩هـ، أي أنه بقي بمكة ٢٢ عاما بدأها بأداء فريضة الحج ثم خصص ما تبقى منها لتحصيل العلم حتى أنه قال مفتخرا : ((لو عددت أيام مشيي بالمشرق، وعددت كتبي التي كتبت هناك بخطي، لكانت كتبي أكثر من أيامي بها))[٦] .

وعلى عكس الغموض الذي يلف الحالات السابقة، تجنح

١ الصلة، ج١، ص ١٦٧ .

٢ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٥ (ط١)،ج٢، ص ٣٤٦، ٣٤٨ .

٣ ابن الأبار، م.س، ج٢، ص ٥٥٢ .

٤ ابن الفرضي، ج١، ص ٢٢١ .

٥ نفس المصدر، ج٢، ص ١٤٤ .

٦ خالد عبد الكريم البكر، الرحلة الأندلسية الى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري، الرياض ٢٠٠٢، ص ٢١٢ .

كتب الطبقات والسير إلى تحديد السنوات التي أمضاها الأندلسيون في طلب العلم بمكة عندما يتعلق الأمر بالعلماء المجاورين، فالحميري يحدد في " جذوته " مدة إقامة العالم الأندلسي الموسوعي أحمد بن عمر بن أنس الدلائي، فيذكر أنه وصل إلى مكة سنة ٤٠٨هـ، وبقي فيها مجاورا إلى أن غادرها سنة ٤١٦هـ، أي أن مدة بقائه طالبا للعلم بمكة استغرقت ٨ سنوات [١]، بينما طالت مجاورة عبد الله بن سعد في مكة وبلغت ٤٠ سنة بدءا من سنة ٣٩١ وانتهاء بسنة ٤٣٠هـ [٢]. ويبدو أن أكبر مدة استغرقتها فترة المجاورة طلبا للعلم بالنسبة لعلماء الأندلس، تلك التي قضاها طاهر الأندلسي من أهل مالقة والتي امتدت من سنة ٤٠٣ هـ إلى ٤٥٠ هـ، أي أن فترة إقامته بمكة كادت أن تبلغ نصف قرن خصصها للدراسة ومجاورة الحرمين [٣]. في حين نجد كتب السير والتراجم لا تحدد أحيانا سنوات مجاورة الأندلسيين، وتكتفي بذكر صيغة غير محددة كما ورد في ترجمة أحمد بن محمد بن هشام بن جهور الذي حج سنة ٣٨٥هـ ((وجاور بمكة أعواما))، وأخذ بها عن السقطي وابن جهضم [٤]، بينما آثر بعض الأندلسيين المجاورين بمكة البقاء بها إلى أن لفظوا أنفاسهم الأخيرة، وهو ما سنعرض له لاحقا .

١ الحميري، الروض المعطار، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٤٨ (ط٢)،ص ١٣٦ .

٢ المقري، م.س،ج٣، ص ٤٠١ .

٣ السلفي، م.س، ص ٩٣ .

٤ نفس المصدر، ص ١٥٢ . وابن جهضم هو أحد العلماء المجاورين بمكة، ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٢٧٥ بقوله : ((الشيخ الإمام الكبير شيخ الصوفية بالحرم أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن بن جهضم الهمذاني المجاور، مصنف بهجة الأسرار، يروي فيه عن أبي الحسن بن سلمة ...مات سنة ٤١٤ هـ). انظر: السيديروم سالف الذكر.

وعلى العموم فقد أمضى الأندلسيون المرتحلون إلى مكة مددا تتفاوت قصرا وطولا. ويبدو أن المسافة الفاصلة بين مكة والأندلس وما كان يعتورها من صعوبات ومشقات فرضت أن لا تقل الرحلة عن عامين على الأقل . في هذا السياق، قدّر أحد الباحثين بناء على نصوص جغرافية أن إجمالي المدة التي تلزم المسافرين برّا من الأندلس إلى الجزيرة العربية تتراوح بين سبعة أشهر و ثمانية أشهر في رحلة الذهاب فقط [١] . ويبدو ذلك معقولا إذا أخذنا في الحسبان أن القوافل كانت تسير نهارا وتتوقف مع حلول الظلام [٢]، وأن الطريق كان يزخر بالعواصم العلمية مثل تاهرت والقيروان والإسكندرية والقاهرة، وهو ما كان يغري بعض المرتحلين في المكوث في هذه الديار برهة من الوقت كما فعل أبو عز الداني الذي مكث بالقيروان أربعة أشهر في طريق رحلته نحو مكة سنة ٣٩٧ هـ [٣]، وأبو غالب بن عطية الذي تردد على ألمرية والمهدية ومصر قبل أن يصل إلى مكة المكرمة [٤] .

ولدينا نصان واضحان في هذا الصدد يؤكد أحدهما أن رحلة الذهاب إلى مكة كانت تستغرق حوالي سنة إذ ورد في ترجمة العالم الأندلسي أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي أنه

١ خالد عبد الكريم البكر، م.س، ص ٢٠٩ .

٢ عياض : م.س، ج١، ص ٥٨٨ .

٣ خالد عبد الكريم البكر، م.س، ص ٢١٠ .

٤ ابن عطية، م.س، ص ٤٤ .

((رحل إلى المشرق مع أبويه سنة ٤٠٧هـ ووصل إلى مكة سنة ٤٠٨هـ)) [١]. كما ورد في ترجمة حاتم بن محمد بن عبد الرحمن (ت٤٦٩هـ) أنه ((رحل إلى المشرق سنة ٤٠٢هـ فدخل مكة سنة ٤٠٣هـ)) [٢] . بينما يكشف نص آخر أن رحلة العودة من مكة إلى الأندلس كانت تستغرق أيضا سنة، إذ ورد في ترجمة أبي غالب بن عطية الأندلسي أنه ((حج سنة سبعين ورحل إلى الأندلس سنة ٤٧١هـ)) [٣] . ولعل هذا ما جعل الفقهاء يمنحون للغائب عن زوجته بسبب الحج رخصة الغياب مدة ثلاث سنوات، علما بأنه جرى الاتفاق في المرجعية الفقهية المالكية ألا يغيب الزوج عن زوجته أكثر من سنة، وإلا كان لها حق الطلاق)) [٤] .

٤- البنية العمرية للأندلسيين المرتحلين لمكة :

من خلال تجميع معطيات الفترة موضوع الدراسة يتضح أن الرحلة العلمية الأندلسية شملت كل الفئات العمرية، ويمكن تصنيفها كالتالي :

أ- رحلة الأندلسيين العلمية في مرحلة الشباب :

قد تكون مرحلة الشباب فترة مناسبة لعلماء الأندلس للقيام

١ الحميدي، م.س، ص ١٣٦ – ابن بشكوال، م.س، ص ٦٦ .

٢ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ١١٢ .

٣ ابن عطية، م.س، ص ٤٤ .

٤ الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف المغربية بعناية مجموعة من المحققين، دار الغرب الإسلامي ١٩٨١، ج٤، ص ٢٥٤ .

برحلاتهم العلمية نحو مكة نظرا لما يتميز به طالب العلم في هذه المرحلة من قوة البدن، والقدرة على تحمل مشقات السفر وعناء الرحلة . ويمثل هذه الحالة العلامة أبو الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) الذي رحل وهو في الثالثة والعشرين من عمره [١]، وأبو عبد الله الحميدي (ت ٤٨٨هـ) الذي رحل وسنه لا يتجاوز الثامنة والعشرين، وربيع بن محمد بن سليمان الذي رحل إلى المشرق وعمره ٣٣ سنة، ولو أن رحلته لم تكتمل بسبب وفاته في البحر أثناء السفر[٢]، ثم محمد بن إسماعيل الأنصاري الذي حج وعمره ٢٢ سنة، وهي الحجة التي بدأ فيها تحصيله العلمي [٣] . وهناك من العلماء من رحلوا إلى مكة وهم لايزالون في غض شبابهم، وحسبنا أن العلامة أبو بكر بن العربي رحل إلى مكة في طريقه إلى بغداد وعمره لا يتجاوز ١٧ ربيعا [٤]. وبالمثل رحل الفقيه عبد الحميد بن محمد المولود سنة ٣٣٠هـ إلى الحج وجاور بمكة سنة ٣٤٨هـ، بمعنى أن عمره لم يتجاوز ١٨ عاما عندما استقر في مكة طلبا للعلم والمجاورة [٥].

ب- الرحلة العلمية الأندلسية في مرحلة الكهولة :

من خلال ما توحي به النصوص، يتضح أن معظم العلماء

١ ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ١٩٧ .

٢ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ١٤٧ .

٣ نفس المصدر، ج٢، ص ١٠٨ .

٤ ابن بشكوال، م.س، ج٢، ص ٥٥٨ – عياض : الغنية، ص ٦٦ .

٥ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٢٩٠ .

المرتحلين الأندلسيين كانوا ينتمون إلى هذه الفئة العمرية، وهو أمر يفسر بأن هذه المرحلة من العمر تعد مرحلة الانتهاء من تحصيل العلوم في البلد الأصلي والابتداء في تحصيلها بالمشرق، كما يفسر أيضا بأنها مرحلة تتسم بنضج شخصية العالم لاستدراك ما فاته من التحصيل، ولأنه غالبا ما يكون المرتحل في هذه الفترة قد أكمل الاستعدادات المادية التي تستلزمها الرحلات العلمية من نفقات السفر وشراء الكتب وغيرها .

ورغم أن النصوص لا تزودنا أحيانا بسنة الولادة وسنة الرحلة، فإن ما توحي به دلالاتها يجعل الباحث يذهب الى ترجيح أن معظم المرتحلين الأندلسيين كانوا من هذه الفئة . في حين تفصح نصوص أخرى - على قلتها - بما يؤكد أن رحلة علماء الأندلس الى مكة كانت تتم في ذروة مرحلة الكهولة ؛ فالفقيه عمر ابن الحسن الهوزني رحل إلى مكة وهو في الثانية والخمسين من عمره [١]، كما رحل والد أبي بكر بن العربي إلى بغداد، ومرّ على مكة وهو يبلغ من العمر خمسين سنة[٢]. وهناك نصّان أوردهما ابن الفرضي يؤكدان هذه الرحلة الكهولية، ويتعلق الأمر بعبد الله بن سعيد الحجري (ت٣٨٢هـ) الذي ((رحل إلى المشرق كهلا وجاور بمكة))[٣] ،ثم الفقيه الأندلسي عبد الرحمن بن خلف بن سدمون التجيبي الذي ولد سنة

١ ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ٣٨١ .

٢ ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١، ج٦، ص ١٨٨ .

٣ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٢٤٤ .

٣٠٠ هـ، وأدى فريضة الحج سنة ٣٤٩ هـ، فسمع بمكة من أبي بكر ابن الحسين الآجري وغيره، وهو ما يعني أن رحلته العلمية كانت في ٤٩ من عمره، أي في بداية سن الكهولة [١].

ج- الرحلة العلمية للأندلسيين المتقدمين في السن :

لم يحل التقدم في السن دون رحلة الأندلسيين نحو مكة للارتشاف من نبع علومها، فالمعطيات النصية التي توفرها المصادر تؤكد أن مكة المكرمة استقبلت عددا من الذين بلغوا من الكبر عتيا، وحسبنا أن الفقيه محمد بن عبد الرحمن الخولاني رحل سنة ٤١٤هـ وهو في السبعين من عمره[٢]، وأخذ العلوم عن مجموعة من شيوخ مكة. كما أن محمد بن سعيد الأموي[٣] و جماهر بن عبد الرحمن الحجري تلقيا العلم عن علماء الحجاز ومشايخ مكة وهما في سن السادسة والستين [٤]. وهناك من الأندلسيين من آثروا الدرس ومجاورة الحرم المكي، وانتهى بهم الأمر إلى الاستقرار في مكة، فقضوا بقية شيخوختهم حتى وفاتهم بها كما هو حال سعدون بن محمد بن أيوب الزهري (ت ٤٣١ هـ) [٥]، وطارق بن موسى المخزومي الذي رحل مرة ثانية لمكة وقد تجاوز السبعين من العمر، فأقام بها إلى أن

١ نفسه، ص ٢٦٨ .

٢ ابن بشكوال، ج٢، ص ٤٧٨ .

٣ المقري، م.س، ج ٢، ص ١٤٠

٤ ابن بشكوال، م.س ج١، ص ١٣١ .

٥ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٣٥٩ .

وافاه الأجل [١].

والجدير بالذكر أننا لم نجد من بين المرتحلين ما يشير إلى مشاركة العنصر النسوي الأندلسي في هذه الرحلات العلمية . كما تجدر الإشارة أيضا إلى مشاركة الأمراء أنفسهم في الرحلة العلمية الأندلسية، فقد ورد في المصادر أن ميمون بن ياسين اللمتوني أحد أمراء المرابطين شدّ الرحال إلى مكة وحج سنة ٤٩٧هـ، واعتنى بطلب الحديث، ولقي من مشايخ مكة أبا عبد الله الطبري وسمع صحيح مسلم من ابن أبي ذر الهروي [٢] . كما أن ينتان بن تويت اللمتوني وهو أحد أفراد الأسرة المرابطية الحاكمة بالمغرب والأندلس رحل بدوره لطلب العلم بمكة المكرمة[٣] .

٥- التجليات العلمية لرحلات الأندلسيين الى مكة :

أ- كثرة المرتحلين الأندلسيين لمكة لطلب العلم :

من خلال الارتكاز على كتابي " تاريخ علماء الأندلس " لابن الفرضي، و" الصلة " لابن بشكوال، والقيام بعملية إحصائية لأسماء الأندلسيين الوافدين على مكة لتلقي العلم، يتضح أن عددهم الإجمالي خلال القرن ٤ هـ وصل إلى ٢١٦عالما، كان دافع ١٦٣ منهم القيام بأداء فريضة الحج وطلب العلم، بينما كان هدف العدد المتبقي

١ ابن الأبار، التكملة، ج١، ص ٣٤٤ .

٢ نفس المصدر، ج٢، ص ٧١٨ .

٣ السلفي، م.س، ص ٥٩- ٦٠

وهو ٥٣ ينحصر في القيام بأداء فريضة الحج فقط . أما في القرن الخامس الهجري فقد تزايد عدد المرتحلين الأندلسيين نحو مكة لطلب العلم و أداء فريضة الحج حيث بلغ ٢٣١ ، رحل منهم ١٦٥ لتحصيل العلم، بينما رحل ٦٦ لأداء فريضة الحج فقط . وإذا حاولنا أخذ تصور عام عن المرتحلين خلال القرنين معا ، أمكن استنتاج أن الذين كانوا يهدفون الى تحقيق الازدواجية بين أداء فريضة الحج وطلب العلم كان مهما بالقياس مع المرتحلين الذين كانوا يهدفون الى أداء الحج فقط، وهو ما يوضحه الجدول الوارد في الملحق رقم ٢ من ملاحق البحث .

ب- تتلمذ الأندلسيين على يد عدد كبير من شيوخ مكة وملازمتهم لهم :

نظرا لكثرة أعداد الأندلسيين الوافدين على مكة بغية تحصيل العلم على يد شيوخ مكة المكرمة، فسنقتصر على بعض النماذج التي لها حمولات دلالية تسمح بتصفح المناخ العلمي السائد فيها ورصد صلاتها العلمية بالأندلس . فمن خلال تتبع ما ورد في كتب الطبقات والسير، نلاحظ الكم الهائل من الشيوخ المكيين الذين قصدهم أهل الأندلس لحضور حلقات تدريسهم، ويتضمن الجدول رقم ٣ الوارد في ملاحق البحث عينة من الأندلسيين وأسماء علماء مكة الذين أخذوا عنهم .

والظاهرة الملفتة للانتباه هو تعدد الشيوخ المكيين الذين تتلمذ

على يدهم الأندلسيون، حيث نعثر في نصوص التراجم على صيغ تعبيرية من قبيل أخذ عن فلان ((وغيره))، أو لقي فلانا ((وسواه))، أو درس على يد ((كثيرين من شيوخها))، وهي ظاهرة إيجابية كان المتلقي يهدف من ورائها إلى إغناء معارفه وتنويع الاستفادة من خبرات أساتذته ؛ فأحمد بن محمد بن عبد الله التجيبي ((لقي ابن الأعرابي بمكة وسمع منه ومن سواه)) [١]، كما أن أحمد بن محمد بن هشام ((جاور بمكة أعواما وأخذ بها عن السقطي وابن جهضم وأبي سعد الواعظ وكثيرين غيرهم))[٢]، أما هاشم بن يحي البطليوي فقد ((سمع بمكة من ابن الأعرابي وكثيرين من شيوخها))[٣]، في حين سمع محمد بن حيون ((بمكة من ابن الأعرابي وابن فراس وغيرهما من المكيين))[٤]، بينما كتب محمد بن عبد الرحمن التجيبي عن جماعة من الشيوخ الذين زاد عددهم عن ١٣٠ شيخا [٥]. ويجسد نص ابن الأبار بامتياز ظاهرة تعدد الشيوخ المكيين الذين سمع منهم علماء الأندلس، وذلك في ترجمة محمد بن الحسن الميورقي الذي ((أخذ بمكة كرّمها الله عن أبي ثابت وأبي الفتح عبد الله بن محمد البيضاوي وأبي نصر عبد الملك بن أبي مسلم العمراني ذكر ابن الخطيب أنه

١ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٤٩ .

٢ ابن بشكوال، ج١، ص ٤٧ .

٣ السلفي، م.س، ص ١٣٢ .

٤ ابن الأبار، م.س، ج٢، ص ٥٥٧ .

٥ المقري، م.س، ج٢، ص ٣٥٩ .

اختصرهم لطولهم)) [١] . ولعلّ تعدد الشيوخ المكيين كان وراء انتشار كتب الفهارس والسير والتراجم خلال القرن ٥هـ، والتي يذكر فيها المؤلف الأندلسي الشيوخ المكيين الذين روى عنهم أو سمع منهم كفهرست ابن خير الإشبيلي وغيرها من الفهارس التي سنعود إليها عند دراستنا لنتائج الرحلة العلمية الأندلسية لمكة .

وصاحبت هذه الظاهرة ظاهرة أخرى تثير الملاحظة أيضا، وهي ملازمة المرتحلين الأندلسيين للشيوخ المكيين ومصاحبتهم والتردد عليهم دون انقطاع لمدة طويلة، فأبو بكر غالب الأندلسي والد ابن عطية صاحب الفهرست المتوفى سنة ٥١٨ هـ، كان قد صحب الإمام أبا عبد الله محمد بن أحمد النحوي الجاحظ المجاور بمكة ((ولازمه وقرأ عليه)) [٢] . كما أن الحسين بن يحي التجيبي رحل إلى مكة سنة ٣٤٨هـ وأخذ عن شيخه الآجري كثيرا من تصانيفه وتردد عليه ست سنوات [٣] . وعن نفس الشيخ المكي أخذ العالم القرطبي محمد بن أحمد بن محمد بن يحي بن مفرج ((ولزمه إلى أن مات سنة ٣٤٠هـ)) [٤] . ولا يخامرنا شك في أن ملازمة الأندلسيين لشيوخهم المكيين ينهض دليلا على رغبتهم الجامحة في تحصيل العلم .

---

١ ابن الأبار، م.س،ج٢، ص ٥٨٥ .

٢ ابن عطية، م.س،ص ٤٤ .

٣ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ١١٤ .

٤ ابن الأبار، م.س، ج٢، ص ٥٥٢ .

ج- محبة شيوخ مكة لعلماء الأندلس وإكرامهم لهم :

ثمة ظاهرة أخرى سجلتها المصادر، وهي إعجاب الشيوخ المكيين بطلاب العلم الأندلسيين الذين رحلوا إليهم، والثقة التي كانوا يضعونها في ما رووا عنهم ؛ وفي هذا الصدد أورد ابن الفرضي[١] في ترجمة ابن عمر الداني شهادة المكيين فيه بقوله : ((وقال بعض أهل مكة " إن أبا عمرو الداني مقرئ متقدم، وإليه المنتهى في علم القراءات وإتقان القرآن، والقراء خاضعون لتصانيفه، واثقون بنقله في القراءات والرسم والنحو والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك، توفي بداية سنة ٤٤٤هـ)).

وفي نفس المنحى اعتبر بعضهم المحدث الحافظ أبو عبد الله الحميدي من علماء أندلس القرن الخامس الهجري الوافدين على مكة من ((أهل العلم والفهم والتيقظ)) [٢]

د - الكتب التي كان يدرسها الأندلسيون في مكة :

يمكن رصد لائحة الكتب التي كان يدرسها الأندلسيون بمكة المكرمة في القرنين ٤و٥هـ من خلال سيرهم وتراجمهم، فقد ورد في ترجمة أحمد بن يحي بن عائد الطرطوشي أنه سمع صحيح البخاري بمكة سنة ٤١٩ هـ [٣] . والراجح أن هذا المصنف كان من

١ تاريخ علماء الأندلس، ج١، ص ٣٠٦ .
٢ المقري، م.س، ج ٢، ص ٣١٩
٣ ابن الأبار، م.س،ج١، ص ٣٩ .

الكتب المعتمدة في الدراسة في مكة حتى أن معظم التراجم التي أوردت عناوين الكتب ذكرته ضمن ما سمعه المرتحلون الأندلسيون [١]. ولم يقل عنه أهمية كتاب صحيح مسلم الذي يتواتر ذكره أيضا ضمن مجموعة من التراجم حيث ورد في ترجمة جهور بن ابراهيم التجيبي أنه ((رحل إلى مكة وحج ولقي أبا عبد الله الطبري وسمع منه صحيح مسلم)) [٢]، ومن نفس العالم المكي سمع صاعد بن أحمد الأصبحي صحيح مسلم أيضا [٣].

يضاف إلى هذين الكتابين الواسعي الانتشار في أوساط طلاب العلم الأندلسيين كتب أخرى ترد أسماؤها في سلسلة التراجم مثل كتاب " التلخيص في القراءات الثمان" الذي أورده ابن خير الإشبيلي في معرض حديثه عن شيوخه قائلا : ((أخذته عن أستاذي ابن أبي سعيد ابن حرز الكلبي الذي حدثه به مؤلفه أبو معشر قراءة منه عليه بمكة حرسها الله سنة ٤٧٣هـ)) [٤].

ومن الكتب المتداولة أيضا " كتاب الموطأ " للإمام مالك و "كتاب النسب " للزبير بن بكار [٥]، وكتاب " فضائل الكعبة " للإمام

١ ورد اسم هذا الكتاب عند : ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ١١٠ – المقري،م.س، ج٣، ص ١١ – ابن الأبار، م.س،ج٢، ص ٧٥٣ .

٢ ابن خير الإشبيلي، فهرست ابن خير الإشبيلي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣ص ٣٠ .

٣ ابن الفرضي، م.س،ج٢، ص ١٢٦ .

٤ المقري، م.س، ج٣، ص ٢٣٦ – فهرست ابن خير، ص ٣٠ .

٥ المقري، م.س، ج١، ص ٢٥٥ .

الخزاعي[١] و"كتاب السيرة" [٢] و"مسند أبي حميد" [٣] و" كتاب الجامع " لأبي معشر الطبري الذي عرف إقبالا كبيرا من طرف طلبة العلم الأندلسيين [٤]، فضلا عن كتاب "إعراب القرآن" [٥] و"المؤتلف في الاختلاف" [٦] وكتاب" التمهيد" للقاضي أبي بكر بن الطيب [٧] و"معالم السنن" لأبي داود السجستاني وكتاب "التفسير" لأحمد بن محمد الثعلبي و"تفسير الواحدي" وكتاب "الانتصاف" وكتاب" شرح الشهاب" لابن إبراهيم بن يوسف الوراق [٨] .

هـ - أنواع العلوم التي كان يتلقاها علماء الأندلس بمكة المكرمة :

كان المناخ العلمي بمكة المكرمة يزخر بشتى أصناف العلوم وضروب المعرفة . غير أن الأندلسيين كانوا ميالين إلى العلوم الشرعية، خاصة الفقه وعلوم الحديث وعلم القراءات، حتى أن العالم الأندلسي أبو الوليد الباجي أحد علماء القرن الخامس الهجري قال في وصيته لولديه : ((وأفضل العلوم علم الشريعة، وأفضل من ذلك لمن

١ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ١٩٤ .
٢ المقري، م.س، ج٢، ص ٣٩٨ .
٣ نفس المصدر، ج٣، ص ١١ .
٤ الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص ٣٦٣ .
٥ ابن الفرضي، م.س،ج٢، ص ٨٢ .
٦ نفس المصدر،ج٢، ص ١٤٤ .
٧ ابن عطية، م.س، ص ٤٤ .
٨ عياض، الغنية، ص ١٤٣- ١٤٤ .

وفق أن يجود قراءة القرآن، ويحفظ حديث النبي (ص)،ويعرف صحيحه من سقيمه، ثم يقرأ أصول الفقه، فيتثقف في الكتاب والسنة ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل عن المسائل عن العلماء، ويدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا)) [١] .

ولا شك أن علوم الفقه كانت تستقطب علماء الأندلس لحاجة الأندلسيين إلى التفقه في الدين من جهة، ولأن المجتمع الأندلسي كان مكونا من عرقيات مختلفة عربية وبربرية ومولدية، وما تبع هذا الامتزاج البشري من نمو عمراني استلزم تنظيم الحياة اليومية وفق تشريعات فقهية مناسبة [٢] . كما أن التبحر في علم الفقه كان يتيح الفرصة لصاحبه بتولي المناصب العليا في الأندلس وخاصة منصب القضاء، وحسبنا أن معظم الراحلين إلى مكة تولوا مناصب الإفتاء والقضاء عند عودتهم إلى الأندلس كما سنرى عند ذكر نتائج الرحلات العلمية .

ولم يقل إقبال الأندلسيين على علم القراءات شأنا عن علم الفقه، إذ تذكر المصادر كمّا هائلا من الأندلسيين الذين تتلمذوا على شيوخ مكيين في علم القراءات لعلّ أشهرهم أبو عمر الداني (ت سنة ٤٤٤ هـ) الذي تلقى قدرا جيدا من علوم القراءات بمكة على يد

١ ((وصية أبي الوليد الباجي لولديه))، نشرها جودة عبد الرحمن هلال، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٥٥، ص ٣٢ .

٢ خالد عبد الكريم البكر، م.س، ص ٤٩٢ .

أحمد بن فراس العبقسي[١]، وأبي عمرو الطلمنكي (ت ٤٢٩ هـ) الذي تلقى علم القراءات على يد الشيوخ المكيين من أمثال أبي طاهر العجيسي وأبي الحسن بن جهضم [٢] .

بيد أن إقبال الأندلسيين على العلوم الشرعية في مكة لا ينفي اغتراف بعضهم من علوم أخرى كعلوم النحو واللغة العربية [٣]، وعلوم الطب التي برع فيها أسد بن حيون المتوفى سنة ٣٦٠ هـ[٤] . وقد أخذوا هذه العلوم كتابة أو سماعا على يد الشيوخ المكيين كما تؤكد ذلك المصادر .

و - طرق تلقي الأندلسيين العلم عن شيوخ مكة :

إن أكثر ما يرد في المصادر حول طرق تلقي العلم من طرف الأندلسيين على يد شيوخ مكة تنحصر في اللقاء والسماع والرواية والكتابة .

فبواسطة الطريقة الأولى، تتعدد الروايات التي تذكر لقاء مرتحلين أندلسيين بأحد علماء مكة، ويمكن إعطاء نموذج عن ذلك بما ورد في ترجمة أحمد بن محمد بن عبد البر التجيبي الذي ((رحل إلى المشرق فلقي ابن الأعرابي بمكة)) [٥]. لكن الغموض يلف موضوع

١ ابن بشكوال، م.س، ج٢، ص ٣٨٥- ٣٨٦ . وانظر ترجمة أحمد بن فراس العقبسي في طبقات المحدثين، ج١، ص ١٢٠، رقم ١٣٣٨ .

٢ نفس المصدر، ج١، ص ٤٩ .

٣ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ١٢٤ .

٤ نفس المصدر، ج١، ص ٧٤ .

٥ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٤٩ .

اللقاء بين طالب العلم وشيخه، إذ لا نعرف كم كانت مدة اللقاء ؟ وهل كان لقاء متقطعا أو مستمرا ؟ وهل كان يتم في المسجد أو في منزل الشيخ ؟ وهل كان لقاء فرديا أم جماعيا ؟

أما السماع فهو الأكثر شيوعا في تراجم علماء الأندلس المرتحلين إلى مكة، ولكن المصادر لا تفصح أيضا عن طبيعة هذا السماع ومدته، وهل كان مقتصرا على الدروس التي يلقيها شيوخ مكة ؟ وهل كان سماعا فرديا أو جماعيا يتم في حلقة دراسية يحضرها كل الطلبة وهو الأرجح . وعلى كل حال، نجد بعض التراجم التي تجسد هذه الطريقة في التعلم، منها ما ورد في ترجمة خلف بن سعود البزاز من مدينة إستجة الأندلسية، إذ جاء في هذه الترجمة أنه ((رحل إلى المشرق حاجا فسمع بمكة من الحسين بن يحي بن زحمويه)) [١] ودوي الصقلبي مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي ((رحل إلى المشرق حاجا فسمع بمكة من ابن الأعرابي وغيره)) [٢].

وكان بإمكان طالب العلم أحيانا الجمع بين اللقاء و السماع، إذ ورد في ترجمة نعم الخلف بن عبد الله أنه لقي بمكة أبا عبد الله بن عبد الله الإصبهاني فسمع منه سنة ٤٢٢هـ [٣].

---

١ نفس المصدر، ج١، ص ١٣٥ .

٢ نفس المصدر، ج١، ص ١٤٦ .

٣ ابن الأبار، م.س،ج٢، ص ٧٥٧ . وانظر في ترجمة أبي عبد الله الأصبهاني : المنتظم، ج ٨، ص ١٦٢، سيديروم سالف الذكر .

أما طريقة الرواية فالراجح أنها كانت تستغرق مدة أطول لما تستلزمه من وقت طويل لأخذ العلوم التي يتكفل الراوي بروايتها ويتحمل وزر الخطأ أو التحريف في روايتها [١] .

علاوة على الطرق التعليمية السالفة الذكر، سادت أيضا طريقة الأخذ بالكتابة حيث ورد في ترجمة عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد أنه ((كتب عن محمد بن الحسين الآجري))[٢].

ثالثا : النتائج العلمية لرحلات الأندلسيين لمكة المكرمة :

من البديهي أن يتمخض عن رحلة علماء الأندلس لمكة المكرمة نتائج علمية إيجابية شكلت مفخرة في تاريخ المجتمع الثقافي الإسلامي ويمكن حصرها فيما يلي :

١- الحصول على إجازات علمية :

يقول ابن خير وهو من علماء أندلس القرن الخامس الهجري : ((لا غنى لطالب الحديث عن الإجازة))[٣] . والإجازة لغة من جواز الماء الذي يسقاه الحرث والماشية، فيقال استجزت فلانا فأجاز لي : إذا أسقاك ماء لماشيتك أو أرضك، وكذلك شأن طالب العلم، فهو يسأل

١ العربي الشريف ((مكة والمجاورون الأندلسيون من العلماء والفقهاء والقراء عبر التاريخ))، بحث نشر ضمن أعمال ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، الرياض ٢٠٠٣، ص ٢٤١ .

٢ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٢٩٠ .

٣ فهرست ابن خير، م.س، ص ١٥ .

الشيخ أن يجيزه علمه فيجيزه إياه [١] . وتكتسي الإجازة أهمية كبيرة في حياة طالب العلم، فهي اعتراف واضح بأهليته في رواية العلم من جهة، وتسمح له بتقلد الوظائف والخطط من جهة أخرى . وكان الحصول على إجازة علمية من طرف الشيوخ المكيين يشكل مطمح الأندلسيين المرتحلين . بيد أن هذا المطمح لم يتحقق لهم جميعا، إذ تقتصر النصوص على التنويه ببعض الذين حالفهم الحظ في بلوغ هذا الهدف، نذكر من بينهم حاتم بن محمد التميمي الذي ((رحل إلى مكة سنة ٤٠٣ هـ وحجّ ولقي بها ابن فراس فقرأ عليه وأجاز له)) [٢]، وخلف بن سعيد الذي رحل إلى المشرق مرتين، ولقي ابن الأعرابي بمكة، الأولى سنة ٣٣٢هـ، والثانية ٣٣٩هـ وأجاز له ما رواه، كما أجاز له علماء آخرون)) [٣] . وتعطينا العبارة الأخيرة الواردة في النص من الدلائل ما يشير إلى أن بعض العلماء مثل خلف بن سعيد المذكور لم يكتف بالحصول على إجازة واحدة، بل تعددت إجازات شيوخ مكة له[٤]، وهو نفس ما حصل لزياد بن عبد الله الأنصاري (ت سنة ٤٧٨ هـ) الذي حصل على إجازة من طرف شيخ مكة الشهير أبي ذر الهروي وغيره [٥]. أما عبد الله بن عبد الرحمن الصدفي (ت ٤٢٤ هـ)، فقد لقي

١ ابن الصلاح، علوم الحديث، تحقيق نور الدين عتر، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨١، ص ١٤٥، اقتباسا من : مبارك لمين، الرحلة العلمية الى المشرق خلال القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراة نوقشت بكلية الآداب بتطوان سنة ٢٠٠١.

٢ ابن الفرضي،م.س،ج١، ص ١١٢ .

٣ نفس المصدر، ج١، ص ١٣٥ .

٤ نفس المصدر، ص ١٣٥ .

٥ ابن بشكوال، ج١، ص ٢١٩ .

بمكة أبا القاسم السقطي وأبا الطاهر العجيفي فأجازا له ما رواه [١] .

وفي نفس السياق يشير ابن الفرضي إلى أن صخر بن سعيد بن صخر رحل مع ابن بتري وأجيز له جميع ما أجيز لرفيقه في الرحلة [٢] . أما القاضي عياض فقد حصل على إجازات من عدة شيوخ مكيين أو من العلماء المجاورين بمكة كتابة [٣] .

٢- تكوين أطر علمية وإدارية أندلسية :

تمخض عن الرحلات العلمية الأندلسية لمكة تكوين أطر علمية جنت ثمار اجتهادها ومواظبتها ، نقتصر على ذكر بعض النماذج: فعبد الرحمن بن مروان الأنصاري ((لقي مشايخ مكة وعاد إلى قرطبة سنة ٣٧١ هـ بعلم كثير)) [٤] . بينما عاد تمام بن عبد الله المعافري الذي سمع بمكة من ابن الأعرابي ((فقيها بارعا)) [٥] . أما ثابت بن حزم الذي كان قد رحل مع ابنه إلى مكة قد عاد إلى الأندلس ((عالما بصيرا بالحديث والفقه والنحو والغريب والشعر))[٦] ، مما يعكس الثقافة الموسوعية التي اكتسبها من شيوخ مكة . وعلى غرار هؤلاء، أصبح جهور بن إبراهيم بعد رحلته المكية عالما نحريرا

١ ابن الفرضي، ج١، ص ٢٢٠ .
٢ نفس المصدر، ج١، ص ٢٩٠ .
٣ الغنية، ص ١٤٣- ١٦٦ .
٤ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٢٨٦ .
٥ ابن بشكوال، م.س،ج١، ص ١٣٢ .
٦ نفس المصدر، ج١، ص ١٣١ .

متمكنا من الفقه المالكي والنوازل والأحكام . في حين عاد حسين بن محمد بن قابل من مكة ((متصرفا في العربية والشعر والغريب)) [١] . أما قاسم بن أصبغ المتوفى سنة ٣٤٠ هـ، فقد علا كعبه في العلم حتى صار ((بصيرا بالحديث والرجال، نبيلا في النحو والغريب والشعر)) [٢] . ويقدم العالم الأندلسي المعروف بابن الدلائي أنموذجا للانعكاسات العلمية الإيجابية للمرتحلين الأندلسيين لمكة المكرمة، ولا غرو فقد ((انصرف عن مكة سنة ٤١٦ هـ، رجع إلى بلده وسمع الناس منه كثيرا، وحدث عنه كبار العلماء في الأندلس مثل ابن عبد البر وابن حزم وغيرهما كثير)) حسب شهادة الحميدي [٣].

إلى جانب هذه النخبة من العلماء الذين سطع نجمهم في سماء العلم، نجد عددا من المرتحلين لمكة شغلوا بعد عودتهم للأندلس مناصب إدارية ودينية سامية نوجزها في الجدول رقم ٤ الوارد ضمن ملاحق البحث .

٣- استقرار بعض المرتحلين الأندلسيين في مكة :

يبدو أن المكانة الدينية التي تحتلها مكة المكرمة في قلوب الأندلسيين ما جعل بعضهم يتخذ قرارا بالاستقرار بربوعها نهائيا، دون أن نغفل بعض الأسباب السياسية التي كانت وراء ذلك، خاصة في

١ ابن الفرضي، م.س، ص ١٤١ .
٢ نفس المصدر، ج١، ص ٣٥٩ .
٣ الحميدي، م.س، ص ١٣٦ .

القرن ٥ هـ، وهو القرن الذي اشتد فيه عود الفتنة وعمّ الاضطراب في طول بلاد الأندلس وعرضها . إلا أن العامل الديني والطموح العلمي كانا المحركين الأساسيين لبقاء هذه النخبة في مكة باعتبارها مركزا دينيا وملتقى سنويا للشعوب الإسلامية، وقبلة يؤمها علماء العالم الإسلامي من كل صوب وحدب .

وفي مجال الاستقرار الأندلسي النهائي بمكة المكرمة تبرز ظاهرة ملفتة للنظر سجلتها كتب السير والتراجم، وهي ظاهرة المجاورة الطويلة التي تعني الاستقرار النهائي في مكة . وقد شملت هذه الظاهرة مجموعة مهمة من علماء الأندلس نذكر من بينهم على سبيل المثال سعدون بن محمد بن أيوب الزهري الذي قرّر في رحلته الثانية إلى مكة المكرمة أن يجعلها دار قرار، حيث بقي مجاورا بها إلى أن وافته المنية سنة ٤٣٥ هـ [١] . نفس الشيء يقال عن عبد الله بن عبد السلام الذي ((جاور بمكة حتى لقي ربه سنة ٣٠٨هـ)) [٢]، و عن أحمد بن أموي بن أسود الذي رحل إلى مكة سنة ٣١١هـ وظل مستقرا فيها إلى يوم وفاته [٣] . ويقدم ابن بشكوال مجموعة من علماء الأندلس الذين آثروا الاستقرار نهائيا في مكة، نذكر من بينهم رزين بن معاوية العبدري ومحمد بن وليد بن عقيل و محمد بن يحي الفرضي الذي توفي بمكة سنة ٤٥٠هـ وغيرهم من العلماء المجاورين.[٤]

١ابن الفرضي، م.س، ج١، ص ١٧٤ .

٢ ابن الأبار، م.س،ج٢، ص ٨٧٦ .

٣ ابن الفرضي، م.س، ج١، ص ٣٧ .

٤ الصلة، ج١، ص ٢٩٦- ٢٩٧، ص ٧٨٨- ٧٩٣- ٧٩٤ .

٤- مساهمة الأندلسيين في حلقات التدريس بمكة:

من بين النتائج الهامة التي تمخضت عن تكوين علماء أندلسيين في مكة، أن صاروا بدورهم يترأسون حلقات دراسية في الحرم المكي يهرع إليها طلاب المعرفة، حتى أصبحت سمعة هذه الحلقات العلمية تتخطى أبواب الحرم الشريف وحدود مكة المكرمة والحجاز لتدوي في آفاق علمية بعيدة، حيث ارتحل بعض العلماء المسلمين لحضورها . وفي هذا المنحى صنف أحد الباحثين الحلقات العلمية التي كان ينظمها العلماء الأندلسيون المجاورون، فذكر من بينها حلقات ترأسها علماء من القرن ٥ هـ من أمثال رزين بن معاوية السرقسطي الذي كان يحلّق حوله الطلبة لسماع كتاب تجريد الصحاح الذي لم يتوقف عن إقرائه والتحديث به طيلة ثلاثة عقود من الزمن، حتى صارت حلقته العلمية بكلمات هذا الباحث ((أشهر حلقات الحديث التي عرفتها مكة العالمة))[1]. كما أشار إلى حلقة دراسية أخرى لا تقل عنها أهمية كان يديرها العالم الأندلسي أبو العباس معد بن عيسى التجيبي الذي عاش في النصف الثاني من القرن ٥ هـ، وظل على قيد الحياة حتى منتصف القرن الذي يليه، وكان موضوعها يتركز إلى جانب أمهات كتب التفسير وصحاح الحديث، على ما كان قد ألفه عن القرآن الكريم [2].

---

١ حسن الورياكلي، ((المجاورون الأندلسيون : مساهمتهم في تشكيل صورة مكة العالمة))، بحث نشر ضمن أعمال ندوة " مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية "، ص ٣٢١ .

٢ نفس المرجع والصفحة .

وتعرض المصادر لأسماء متعددة من أعلام الأندلس الذين تحولوا من طلاب علم إلى فطاحل من العلماء الذين تزاحم الناس لحضرور مجالسهم، نذكر من بينهم أبو بكر الطرطوشي[١]، وقاسم ابن احمد بن جحدر الذي ((جاور بمكة واستوطنها وعلا به ذكره ورحل الناس إليه))[٢]، ويحي بن نجاح (ت٤٢٢هـ) الذي كان العلماء يحضرون مجلسه لسماع كتابه المسمى "سبل الخيرات"[٣]. كما ساهم العالم الأندلسي عبد الرحمن بن محمد المعافري في الإشعاع العلمي لمكة بتدريسه علم الأصول وعلم الكلام. وكان عبد الله بن وهب من أهل طليطلة ((مؤالفا لمن قدم عليه من مكة من آفاق بلاد المسلمين من طلاب العلم والعباد حتى لا يشك أنه أعلى من يدخل الأندلس من أهلها))[٤].

ولا يخامرنا شك في أن هذه الحلقات العلمية التي كان يعقدها العلماء الأندلسيون في مكة قد ساهمت إلى حد كبير في المزيد من الإشعاع العلمي لمكة بفضل ما كانت تتضمنه من علوم متنوعة ومناظرات وحوار علمي.

٥- كثرة إنتاج الكتب والمؤلفات الأندلسية :

من البديهي أن يسفر التكوين العلمي للأندلسيين بمكة عن

١ ابن بشكوال، م.س،ج١، ص ١٤٨.
٢ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٣٦٠.
٣ عياض، الغنية، ص ٦٦.
٤ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٢٢١.

اقتحام هؤلاء مجال التصنيف والتأليف بعد أن رسخت قدمهم في ميدان العلم .

ولعلّ أول ما يلفت الانتباه هو هذا الكم الزاخر من كتب الفهارس والطبقات التي دوّن فيها الأندلسيون الشيوخ الذين أخذوا عنهم، والكتب التي سمعوها منهم أو حدثوهم بها. وقد أفلح أحد الباحثين في رصد عناوين هذه المؤلفات التي صنفها الأندلسيون منذ القرن ٢ هـ حتى القرن ٦ هـ، نقتبس منها ما يهم القرن القرنين ٤ و٥ هـ موضوع دراستنا، إذ بلغت ١٢ فهرست نذكر منها فهرست القنازعي المتوفى سنة ٤١٣هـ وفهرست أبي عمرو الداني وفهرست العذري (٤٧٨) وفهرست الصدفي (ت ٥١٤ هـ) [١] .

وتفيض المصادر بذكر حركة التأليف التي نشطت لدى العلماء الأندلسيين المرتحلين، فتذكر أسماء مؤلفاتهم أحيانا، بينما تكتفي أحيانا أخرى بذكر ما يفيد تبحرهم في التصنيف دون ذكر العناوين، فخلف بن قاسم (ت ٣٩٣هـ) الذي مكث في مكة ١٥ سنة ((ألف كتبا حسانا في الزهد)) [٢]، وكان لعبد الرحمن بن عثمان الصدفي (ت٤٠٣) ((تواليف عدة)) [٣]، بينما كان لابن الفرضي ((تآليف حسنة)) [٤]، لعلّ أهمها كتاب " تاريخ علماء الأندلس " . أما ابن

١ خالد عبد الكريم البكر، م. س، ص ٣٤٠ .

٢ ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ١٦٧ .

٣ نفس المصدر، ج٢، ص ٣٣٩ .

٤ الحميدي، م.س، ص ٢٦٦ .

عمرو الداني فقد أحصى له ابن الفرضي ما يربو عن ١٢٠ مؤلفا، وذكر فيه شهادة تثبت طول باعه في مجال التأليف حيث قال عنه : ((حج ورجع إلى الأندلس سنة ٣٩٩هـ وخلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس، وهو صاحب المؤلفات المشهورة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرق إعرابه، له أكثر من ١٢٠ مؤلفا بالحديث وطرقه وأسماء رجاله))، وهي نفس الشهادة التي قالها فيه أهل مكة [١] . كما صنّف محمد بن أحمد بن يحي (ت٣٤٨هـ) بدوره كتبا في فقه الحديث وفي فقه التابعين [٢] .

أما المصنفات الأندلسية التي أوردت المصادر عناوينها، فمنها ما كان يدرس بمكة نفسها حيث يذكر الحميدي في ترجمة يحيي بن نجاح أن كتابه المسمى "سبل الخيرات" كان من بين الكتب التي يدرسها طلاب العلم الوافدون على مكة [٣].

وفيما بخص عناوين المؤلفات الأخرى التي صنفها هؤلاء العلماء الأندلسيون بمكة فيمكن الاقتصار على بعض النماذج منها مثل كتاب " الدلائل على المسائل" لعبد الله بن إبراهيم الأموي[٤]، وكتابي " الإخلاص " و " علم الباطن " لمحمد بن فتح [٥]، و"سبل

١ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ٣١٣ .

٢ المقري، م.س، ج٣، ص ٣٥٠ .

٣ جذوة المقتبس، ص ٣٨٢ .

٤ ابن الأبار، م.س،ج٢، ص ٨٢٨ .

٥ المقري، م.س،ج٢، ص٣١٩ .

الخيرات " ليحي بن نجاح [١]، و " السراج في علم الحجاج " لأبي الوليد الباجي [٢] .

٦- حمل علماء الأندلس الكتب من مكة إلى الأندلس :

من النتائج المهمة التي أسفرت عنها رحلات الأندلسيين إلى مكة المكرمة أيضا قيام بعضهم بشراء الكتب الرائجة فيها، والعودة بها إلى الأندلس . وقد تيسر هذا الأمر خصوصا لفئات العلماء الموسرين من أمثال هشام بن عمر الأموي، وسلمة بن سعيد الأنصاري (٤٠٦هـ)، الذي جمع أنواعا من المصنفات ((ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله إلى المشرق)) [٣]، وكذلك الحال بالنسبة لميمون بن ياسين الصنهاجي (٤٥٠ هـ) أحد أمراء المرابطين الذي كان أول من حمل إلى المغرب كتاب صحيح البخاري [٤] .

بيد أننا لا نعدم من النصوص ما يشير إلى أن نفس الدور قام به بعض العلماء الأندلسيين رغم ضيق حالهم، ومنهم خلف بن فرج بن خلف الذي لقي بمكة رزين بن معاوية الأندلسي فحمل عنه كتابه في "تجريد الصحاح " [٥]، ومحمد بن مفرج المعافري (٣٧١هـ) الذي من جهته ((أدخل بعض الكتب إلى الأندلس)) [٦] . وبالمثل حمل أبو بكر

---

١ الحميدي، م.س، ص ٣٨٢ .

٢ عياض، المدارك، ج ٢، ص ٨٠٦ .

٣ ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ٢٢٠ .

٤ ابن الأبار، م.س، ج٢، ص ٧٥٣ .

٥ ابن الفرضي، م.س،ج١، ص ١٤٦ .

٦ نفس المصدر، ج٢، ص ٩٥ .

بن غالب بن عبد الرحمن كتاب "اختصار أبي جعفر محمد بن جرير الطبري " [١] .

٧- انتقال العلوم السائدة في مكة إلى الأندلس :

من البديهي كذلك أن تكون ثمار الرحلات العلمية الأندلسية نحو مكة المكرمة انتقال العلوم السائدة بها إلى الأندلس نتيجة رجوع الأندلسيين إلى وطنهم، وانتقال الأفكار والكتب معهم، لذلك لا عجب أن ينتشر علم الفقه بالأندلس انتشارا واسعا خلال القرنين ٤ و٥هـ أكثر من القرون السابقة، إذ تؤكد تراجم الحقبة موضوع الدراسة أن معظم المرتحلين تشبعوا بالعلوم الفقهية ورجعوا مزودين بزاد معرفي فقهي واسع، مكنهم من تولي مناصب القضاء وأحكام الشورى في مختلف المدن الأندلسية، والمضي في التصنيف والتأليف كما سبق الذكر .

أما بالنسبة لعلم الحديث فقد كان تأثير مكة واضح المعالم في الأوساط العلمية الأندلسية، إذ أن مصنفات شيوخ مكة في الحديث أصبحت متداولة في الأندلس بفضل الكتب التي حملها الأندلسيون معهم، أو عن طريق السماع، أو التأليف . ولا غرو فقد صنف قاسم بن أصبغ البياني (ت٣٤٠ هـ) كتابا في الحديث تحت عنوان " المجتبى " اقتفى فيه أثر كتاب المنتقى لابن الجارود المكي وسار على أبوابه [٢] .

---

١ ابن عطية، م.س، ص ٤٤ .

٢ الحميدي، م.س، ج٢، ص ٥٢٧ – خالد عبد الكريم البكر، م س، ص ٢٩٤ .

وبالمثل اتضح التأثير المكي على الحركة العلمية الأندلسية في انتشار علم القراءات، خاصة أن مكة المكرمة كانت تزخر بالعلماء الذين يشار إليهم بالبنان في هذا العلم من أمثال أبي معشر الطبري وأبي علي العرجاء وهما من أشهر القراء المجودين بمكة . وكان الأندلسيون يقرأون القرآن بمكة على هذا الأخير بجميع الروايات التي تضمنتها كتبه، مع الجامع لأبي معشر الطبري [١]، لذلك لم يكن غريبا أن يبرز العديد من العلماء الأندلسيين الذين حققوا مكانة سامقة في هذا العلم ؛ وحسبنا أن الأندلس صارت موطنا لعدد من كبار القراء في العالم الإسلامي من أمثال أبي عمرو الطلمنكي (٤٢٩هـ) الذي كان أول من أدخل علم القراءات للأندلس[٢]، وأبي عمرو الداني (٤٤٤هـ) الذي تلقى قدرا جيدا من علوم القراءات بمكة على يد أحمد بن فراس العبقسي [٣] .

وإذا انتقلنا إلى علوم العربية والنحو، نجد أن العلماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى مكة حصلوا على نصيب وافر من هذه العلوم، فإبراهيم بن محمد بن سليمان الذي أقام بمكة مدة طويلة، صار من ((أهل الأدب والنحو)) [٤] . كما رجع محمد بن إسحاق بن منذر من مكة إلى الأندلس ((متصرفا في علم النحو واللغة)) [٥]، بينما

١ الضبي، م.س، ص ٣٦٣ – خالد عبد الكريم البكر، م.س،ص ٢٨٩ .

٢ ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء، ج١، ص ١٢٠، اقتباسا من خالد عبد الكريم البكر، م.س، ص ٢٨٧ .

٣ ابن بشكوال، م.س،ج٢، ص ٣٨٥- ٣٨٦ .

٤ السلفي، م، س، ص ١٥٢ .

٥ ابن الفرضي، م.س، ج٢، ص ١٧ .

أصبح حسين بن محمد بن قابل الذي سمع من ابن الأعرابي في مكة متبحرا في العربية والشعر والغريب، ولقّن هذه العلوم للعديد من الأندلسيين ومنهم ابن الفرضي الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة [١]. وبالمثل، كان خطاب بن مسلمة أيضا من شيوخ ابن الفرضي، وعنه تلقى علوم العربية والنحو [٢]. ولعلّ المكانة التي تبوأها الأندلسيون المرتحلون لمكة في ميدان النحو ما جعل أحدهم وهو محمد بن يحي بن عبد السلام يلقب بالنحوي [٣]، وكان علم النحو من أبرز العلوم التي برع فيها مسلمة بن القاسم (ت٣٨٤هـ) إلى جانب تجويد القرآن [٤].

يضاف إلى العلوم التي انتشرت بالأندلس نتيجة رحلة علماء الأندلس لمكة علم الطب، إذ ورد في ترجمة أسد بن حيون بن منصور المتوفى بإستجة سنة ٣٦٠هـ أنه سمع بمكة من أبي جعفر الديبلي وأنه ((كان بصيرا بالطب)) [٥].

ويمكن أيضا إضافة علم الحساب ضمن العلوم التي برز فيها المرتحلون الأندلسيون، إذ سجلت نصوص التراجم أن أصبغ بن قاسم عاد بعد رحلته المكية ((بصيرا بالعربية والحساب)) [٦].

١ تاريخ علماء الأندلس، ج١، ص ١٢٤ .

٢ ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ١٧٤ .

٣ ابن الفرضي، ج٢، ص ٦٩ .

٤ نفس المصدر، ج٢، ص ٩٨ .

٥ نفس المصدر، ج١، ص ٧٤ . ورد في ترجمة أبي جعفر الديبلي أنه توفي سنة ٣٢٢، انظر : مولد العلماء ووفياتهم، ج ٢ ن ص ٦٥١ .

٦ ابن الفرضي، م.س، ج٢، ص ٩٤ .

٨- انتقال الأشعرية إلى الأندلس :

يمكن اعتبار ظهور الأشعرية بالأندلس نتيجة مباشرة للرحلة العلمية الأندلسية نحو مكة المكرمة، ولا غرو فإن أبا الوليد الباجي كان على رأس الأشاعرة بالأندلس دون منازع[١] . وإذا علمنا أن هذا الأخير صحب الفقيه الأشعري المجاور بمكة أبا ذر الهروي حيث كان يلازمه ملازمة الظل للإنسان و لا يكاد يفارقه، أمكن البرهنة على هذا التأثير العلمي المكي الواضح على الأندلس . فليس من الغريب أن يستلهم أبو الوليد الباجي آراء الأشاعرة عن طريق شيخه سالف الذكر الذي كان من أكثر شيوخ المشرق الذين تأثر بهم [٢] .

وبرزت معالم الأشعرية واضحة في الحياة العلمية بالأندلس خلال القرن ٥هـ إذ نشطت المناظرات الفقهية، وتطورت أساليب الجدل في الدفاع عن المواقف الفكرية، حتى أن الباجي المذكور صنف كتاب " السراج في علم الحجاج "، وهو كتاب كما يوحي عنوانه ألف خصيصا في موضوع الجدل والدفاع عن الأفكار بالحجج والأدلة، وكأنما أراد أن يؤسس بذلك لعلم جديد في الأندلس يبحث في القواعد العامة للمناظرات العلمية وآدابها، وذلك من خلال عرض نماذج من الخلافات الفقهية في المشرق [٣] .

---

١ عياض، المدارك، ج٢، ص ٨٠٢ – ابن بشكوال، م.س، ج١، ص ١٩٧ .

٢ خالد عبد الكريم البكر، م.س،ص ٢٨٠ .

٣ نفس المرجع، ص ٢٨١ .

خاتمـــة :

مـن حـصيلة هـذا البحـث، يتـضح أن رحلـة علمـاء الأنـدلس نحـو مكـة المكرمـة خـلال القـرنين الرابـع والخـامس الهجـريين كانـت فعالـة ونـشيطة، نتيجـة تفاعـل مجموعـة مـن العوامـل المتمثلـة خـصوصا في تـداخل القدسـي والعلمـي لمكـة في فكـر علمـاء الأنـدلس، وسـعيهم لتحقيـق الازدواجيـة بـين أداء الحـج وطلـب العلـم، إلى جانـب الـسمعة العلميـة الطيبـة الـتي تميـز بهـا علمـاء مكـة . واكتـست الرحلـة العلميـة الأندلـسية نحـو مكـة المكرمـة خـصائص متميـزة تمثلـت في كثـرة المـرتحلين الأندلـسيين إليهـا مـن جميـع الفئـات العمريـة ، حيـث تتلمـذوا علـى شـيوخ مكـة دون انقطـاع، ممـا أعطـى بعـدا علميـا تـرك بـصمات واضـحة علـى المـسار الثقـافي لـبلاد الأنـدلس، وسـاهم في ربـط الجـسور الثقافيـة بـين مكـة والأنـدلس . وتمخـض عـن هـذه الـرحلات نتـائج بعيـدة الغـور نجلـت أساسـا في حـصول الأندلـسيين المـرتحلين علـى إجـازات علميـة، وتعميـق ثقـافتهم الإسـلامية، و تكـوين أطـر أندلـسية مـن الطـراز الرفيـع، نقلـت معهـا عنـد عودتهـا كافـة العلـوم والمنـاحي المعرفيـة والكتـب الرائجـة في مكـة المكرمـة نحـو بـلاد الأنـدلس، ممـا سـاهم في صـقل الشخـصية العلمية الأندلسية وزاد من ترسيخ الصلات الحضارية بين البلدين .

تم بحمد الله

الملاحـــــق

جـدول رقـم ١ : النـصوص الـتي اسـتعملها مؤلفـو كتـب الـسير والتراجم للربط بين الحج والعلم ودلالاتها العلمية

اسم العالم	النص الدال على الارتباط بين الحج وطلب العلم	المصدر
عبـد الله بـن محمـد التجيبي	حج وطلب العلم	تـاريخ علمـاء الأندلس، ج١، ص ٢٣١
محمـد بـن أحمـد بـن عبـد الملك بن سلام	رحل حاجا وسمع في رحلته	تـاريخ علمـاء الأنـدلس، ج٢، ص ٢٥- ٣٠
أبـو محمـد عبـد الله بـن محمد الخشني	حج وسمع بمكة	كتاب الغنية، ص ١٥٣
أبو الحسن علي بن خلف بن ذي النون	حج وكتب عن جماعة	فهرسـت ابـن عطيـة، ص ٧١
عبد الله بن نور	رحـل إلى المـشرق حاجـا وطالبا	تـاريخ علمـاء الأنـدلس، ج١، ص ٢٢٣
طاهر بن مؤيد القزاز	حج وحدث	تـاريخ علمـاء الأنـدلس، ج١، ص ٢٠٧
سعيد بن يحي بن مزين	رحـل حاجـا وبلـغ الـسؤدد في العلم	تـاريخ علمـاء الأنـدلس، ج١، ص ١٦٢ .
أبـو القاسـم بـن عمـر الهوزني	حـج وكتـب عـن جماعـة مـن العلماء	فهرسـت ابـن عطيـة، ص ٩٣

جدول رقم ٢ :جدول توضيحي يبين كثرة أعداد المرتحلين الأندلسيين الراغبين في تحقيق الازدواجية بين الحج وطلب العلم مقارنة مع الراغبين في أداء فريضة الحج فقط حسب معطيات ابن الفرضي وابن بشكوال

	عدد المرتحلين الراغبين في الحج وطلب العلم	عدد المرتحلين الراغبين في أداءفريضة الحج فقط
القرن ٤ هـ	١٦٣	٥٣
القرن ٥ هـ	١٦٥	٦٦
المجموع	٣٢٨	١١٩

جدول رقم ٣ :عينة لبعض شيوخ مكة

الذين أخذ عنهم الأندلسيون العلم

اسم العالم الأندلسي	اسم العالم المكي الذي تتلمذ على يديه
إبراهيم بن أحمد السلمي	أبو الفتح البيضاوي
أحمد بن عبد الله اللخمي	أبو سعيد بن الأعرابي
أحمد بن علي السقطي	أبو علي بن العرجاء إمام الحرمين أبو مظفر الشيباني قاضي الحرمين
أحمد بن عبد الله بن جرير	أبو سعيد بن الأعرابي+ ابن فراس

اسم العالم الأندلسي	اسم العالم المكي الذي تتلمذ على يديه
أحمد بن محمد بن يحيي	أبو سعيد بن الأعرابي
أحمد بن محمد بن معروف	أبو بكر بن محمد بن الحسن الآجري
أحمد بن محمد بن هشام	السقطي + ابن جهضم + أبو سعد الواعظ
إسماعيل بن يحي	أبو ذر الهروي
أصبغ بن عبد الله	أبو الحسين الخزاعي
محمد بن قطيب	أبو بكر القريشي

جدول رقم ٤ : نماذج من المناصب الدينية والإدارية

التي تولاها الأندلسيون بعد عودتهم من رحلتهم العلمية الى مكة المكرمة

المناصب الإدارية والدينية	العلماء الذين تقلدوها	المصدر
أحكام الشرطة	محمد بن يحي بن خليل	تاريخ علماء الأندلس ج٢، ص ٨٠
خطة الشورى	خلف بن فرج بن فحلون	التكملة، ج١، ص ٣٠٢
الصلاة والخطبة بالمسجد	محمد بن ابراهيم اللخمي	نفح الطيب، ج٦، ص ٣٦٣
الإقراء والتدريس	أحمد بن أحمد العذري	جذوة المقتبس، ص ١٣٦

المناصب الإدارية والدينية	العلماء الذين تقلدوها	المصدر
عقد الشروط	أيوب بن عبد المومن بنيزيد الأنصاري	تاريخ علماء الأندلس ج١ ، ص ٩٨ .
خطة العدول	سليمان بن يحي بن عثمان	تاريخ علماء الأندلس ج١ ،ص ٢٩٠
خطة القضاء	عبد الرحمن بن محمد بن عيسى	تاريخ علماء الأندلس ج١ ، ص ٢٩٠
خطة الرد	ابن تلميح	تاريخ علماء الأندلس ج٢ ، ص ٧٤٠
خطة المظالم	محمد بن إسحاق بن منذر	تاريخ علماء ،ج٢ ، ص ١٩
خطة النظر في الأرقام	محمد بن سعيد بن عبد الله بن قرط	تاريخ علماء الأندلس،ج٢ ، ص ٩٤ .
خطة الوزارة	محمد بن يحيى بن زكرياء المعروف بابن برطال	تاريخ علماء الأندلس،ج٢ ، ص ١٠٦

جدول رقم ٥ : النسبة الكبيرة لاستقطاب مكة المكرمة لعلماء وطلاب العلم الأندلسيين مقارنة مع المدن الحجازية الأخرى، اعتمادا على معطيات " تاريخ علماء الأندلس " لابن الفرضي.

المدن الحجازية	عدد العلماء الأندلسيين الراحلين إليها	النسبة المئوية
مكة المكرمة	١٥٨	٧٢٪
المدينة المنورة	٥١	٢٣٪
جـدة	٥	٢٪
مناطق حجازية أخرى	٧	٣٪
المجموع	٢٢١	١٠٠٪

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفضاعي، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار الحسيني، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ١٩٥٦.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٥ (ط١).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (ط٣) دون تاريخ
- ابن خلدون، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١ .
- ابن خير، أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي : فهرست ابن خير الإشبيلي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣
- ابن الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، سيديروم مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج .
- ابن زبر الربعي، مولد العلماء ووفياتهم، سيديروم مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق المحاربي الأندلسي، فهرست ابن

عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٠

- ابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح علي بن العماد، شذرات الذهب، سيديروم مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج .
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦
- الباجي، أبو الوليد، وصية أبي الوليد الباجي لولديه، نشرها جودة عبد الرحمن هلال، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٥٥ .
- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦ .
- الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي، الروض المعطار، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٤٨ (ط٢) .
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد التركماني، سير أعلام النبلاء، ج ١٨ و١٩، سيديروم مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج .
- السلفي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٥ .
- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس في تاريخ

رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧

- القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي، ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت _ طرابلس ١٩٦٧، دار مكتبة الحياة ودار مكتبة الفكر.
- القاضي عياض، الغنية، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢
- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب، تحقيق الشيخ البقاعي، دار الفكر، بيروت .١٩٨٦
- الونشريسي، أبو العباس محمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف المغربية بعناية مجموعة من المحققي، دار الغرب الإسلامي ١٩٨١
- ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دون تاريخ) .

الدراسات الحديثة :

أ – الكتب :

- خالد عبد الكريم حمود البكر: الرحلة الأندلسية الى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري، الرياض ٢٠٠٢.

- مبارك لمين، الرحلة العلمية الى المشرق خلال القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراة نوقشت بكلية الآداب بتطوان، جامعة عبد المالك السعدي، سنة ٢٠٠١

ب – الدراسات :

- أحمد الريسوني : ((مكة المكرمة في الثقافة المغربية))، بحث نشر ضمن أعمال ندوة " مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية "، منشورات وزارة الحج، الرياض ١٤٢٤ هـ \ ٢٠٠٣ م.
- حسن الوراكلي، ((المجاورون الأندلسيون : مساهمتهم في تشكيل صورة مكة العالمة))، بحث نشر ضمن أعمال ندوة " مكة المكرمة عاصمة الثقافة الاسلامية "، منشورات وزارة الحج، الرياض ١٤٢٤ هـ \ ٢٠٠٣ م.
- العربي الشريف : ((مكة والمجاورون الأندلسيون من العلماء والفقهاء والقراء عبر التاريخ))، بحث نشر ضمن أعمال ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، منشورات وزارة الحج، الرياض ١٤٢٤ هـ \ ٢٠٠٣ م.
- محمود علي مكي : ((رواد الثقافة الأولى بالأندلس))، مجلة البينة، الرباط، العدد ٧، سنة ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢ م .